

حتى خرّ أمراؤه للطاعة سجداً وبكياً . وهذا إلى غير ذلك من الأغراض المهمة والمقاصد العارضة الملممة التي لا بد للمملكة من إقامة وظائفها وأداء مناسك موافقها من تهنئة يعظم بها قدر النعمة الموهوبة وتعزية يبرد بها حرارة العبرة المسكوية وشفاعة يقتاد بها زمام القبول لحصول المأربة المطلوبة فلهذا كاتب الإنشاء المعاني علم هذه المعاني ضارب في أعشار العلوم بالقدح المعلى راكب من صهوات الفضائل مطا المحلى الأعلى فإن مواد صناعته وأمتعته بضاعته شروط براعته معرفة الآيات القرآنية وأسباب نزولها وعلم الأحاديث النبوية وكيفية مدلولها وفهم سير الملوك الأولى في أفاعيلها وأقوابيلها والتضلع من الحكمة والأمثال بتفريعها وتأصيلها والقطع على وقائع العرب . بجملها وتفصيلها والتوسع في أبحر المعاني الشعرية ما بين متقاربيها وطويلها فبذلك يملك زمام البلاغة والبراعة ويرمى بقدمه على قمم أهل هذه الصناعة فإذا أمره السلطان بكتاب تخير له أفصح ألفاظه وأرجح معانيه وجعل مطلع دعائه مشعراً بالفرض المودع فيه ويختصره تارة ويطنب أخرى ويستعمل في كل مقام ما هو أليق به وأحرى . وقديماً قال عمرو بن مسعدة وكان تفوق من البلاغة درّ أخلافها وتطوق من البراعة درّ أصدافها قال : أمرني المأمون أن أكتب بين يديه كتاباً إلى بعض العمال على يد رجل له به عناية لحاجة الرجل عند المكتوب إليه وقال : أوجز ما استطعت وبالغ في حقه فكتبت : كتابي إليك كتاب واثق بمن كتب إليه معتن بمن كتب له ولن يضيع بين الثقة والعناية حامله والسلام قلما وقف عليه وقع عنه بموقع ظهرت لى آثار بشره وبرة فالتعبير بالألفاظ القليلة عن المعاني الكثيرة وإبداؤها للسامعين فى الكلام القصيرة شاهد للكاتب برجحان فضله حامد له بلسان الأدب كله فهذا النوع من الإيجاز فى استعمال الحقيقة والمجاز معدود من دلائل الاعجاز وقد أجمع أرباب علم المعانى والبيان وقطع أصحاب التقدم فى هذا الشأن أن أوجز كلمة كانت العرب تستعملها وتتداولها أستهم النصيحة وتفضلها قولهم التل أنفى للمقتل ويعدونها واسطة عقد الإيجاز ويحمدونها بلسان التفضيل ص ١٥٠ : والامتيان

فلما نزل القرآن الكريم وفيه قوله تعالى ﴿ ولكم فى القصص حياة ﴾ وقرعت آياته أسماعهم وقطعت فصاحت عن معارضته أطماعهم أذعنوا له بخفض الجناح ورفض الجماع واعترفوا برجحان هذه الكلمة لما فيها من الكشف والبيان والتكملة والإيضاح ولا غناء عن كشف الغطاء عن وجه هذا الاجمال بين التفضيل وأبا الوجوه المرجبة لاعترافهم بالرجحان والتفضيل وهى خمسة :